ختام قصة :

من الأعماق

للأستاذ كامل محمود حبيب

— ٣ —

... وظل الشابان فى تردد وحيرة ، والفتاة فى الدار لا تجد الخيرة من أمرها ، وهى قد وافقت منذ حين على أن تتزوج من جلال ...

وأصر جلال على رأيه فى تشبث وعناد ، لأنه خطب الفتاة إلى أبيها فوجد منه الرضا والقبول ، ووجد من أمها العطف والحنان ، وألف فى أهلها الصاحب والرفيق . وأهله يتأهبون — منذ حين — ليوم الزفاف وهو قريب . على حين قد أخذ هو يستعد لما بعد هذا اليوم — لشهر العسل — فى سرور واستبشار .

ما ذا يضير الفتى بعد ، وإنه ليدخل إلى دار الفتاة فيجد من يستقبله فى حفاوة وإيثار ، ومن يتحدث إليه فى رقة وحنان ، ومن يبذل له العطف والمحبة ، ومن يحرص على راحته وهدوئه ، وأخيراً يجد من يودعه فى حرارة وشغف .

وأحس فكرى بك بأن فى شباب جلال وقوته ما يبعث فى الدار الحياة والحركة ، وما يرسل فى قلبه الهدوء والطمأنينة ، واستشعرت الأم فى الفتى النور والبشرى . لقد انبثق هذا الشعور فى قلبيهما توباً عميقاً ، لأنهما عاشا عمراً يلتمسان الابن (الذكر) فلا يجدانه ، والرجل ذو ثراء وذو حاجات ، يقعده عن أن يشرف على كثير منها ما يحس من وهن وضعف من أثر الشيخوخة التى تدب فى مفاصله رويداً رويداً . وهذا أخوه الفلاح يسيطر على رغباته ويختال ماله فى عنف ، وهو يقوم على حاجات العزبة ، ويدير أمورها ، ويستبد بشئونها ، ثم لا يرسل إلى سعادة اليك إلا فضلة ما يبقى من فلات أرضه ، واليك لا يستطيع أن ينزع الأطيان من بين يدى أخيه فتضطرب شئونها ويختل أمرها وما له عهد بإدارتها ، ولا أن ينال حقه بقوة القانون فتلوكه الألسن ، ويتندر به الفلاحون فى مجالسهم .

والآن ، جاء جلال — بعد لأى — ليكون ابناً فى الدار لتنبض بالحياة والنشاط ، وسيدأب فى العزبة ليزيح عنها هذا الكابوس الجاثم على خيراتها ومنافعها

كل أولئك غشى على عينى الفتى فلم يلق باله إلى هذا الشحوب البادى على وجه الفتاة فيعصف بنضارتها ورونقها ، ولا إلى هذا الفتور الذى يستلبها من إرادتها حين تلقاه . ولم يزعجه هذا الفتور الذى يلمسه دائماً ، فهى لا تأنس إليه إلا ريثما تنفلت من لدنه . ولم يضايقه أن لا تبسم له إلا ابتسامة جافة عابرة يتبجس من أضعافها معنى الألم والحسرة . فهو لا يحس أنها تنطوى على بغض له ما تستطيع أن تبوح به خشية أن تجتاحها ثورة الأب ونقمة الأم . إنه لفى شغل عن ما يختلج فى أعماء الفتاة ، لأنه سعيد فى هذه الدار ، سعيد بالضجة التى تكتنفه هنا وهنالك ، سعيد بالزواج من هذه الفتاة الجميلة الزكية . غير أن خاطرة كانت تحوم حول عقله توشك أن تلجه فيدفعها عنه فى شدة وعنف ، خاطرة نبت غرامها فى قلبه منذ أن تحدث إلى عادل حديثه وحديث الفتاة ، فوجد منه الإصرار والعناد ، لقد استطاع أن يوهم نفسه بأن الفتاة تلقاه فى مهوم وسمت من أثر الحياء والخفر ، وأنها تنزوى عنه حين تريد أن تتصنع الدلال والمنع ، وهو حين يسيطر عليه الشك يتخيل بأن خلجات نفس الفتاة نزوة طائشة من نزوات الشباب لا تلبث أن تهدأ وتستقر .

وانطوت الأيام تدفع الشكلة إلى نهايتها .

* * *

أما عادل فكان يرى الحوادث حواليه تضطرب وتندفع إلى غايتها ، وما له يد يدفع بها هذه العاصفة وهى توشك أن تلفه فى غير رحمة ولا شفقة . لقد كان يلقى فتاته بين الحين والحين لا يستطيع أن ينزع نفسه عنها ، ويجلس إلى جوارها يتحدث إليها ، وإن قلبه المكلوم ليئن أنيناً يسمع ويرى ، وهو يوارى زفراته الحرّى ، ويدارى عبراته الساخنة خلف ستار من الرجولة والكرامة .

ولكن عين الفتاة كانت تنفذ إلى ما وراء الحجاب فلا ينطلى عليها هذا التصنع وهى ترى فتاها ينهد من حزن عميق ، ويتضعضع من أثر الصدمة . وهو يرى فتاته تذوى وتذبل لأنها تفتقد إلى أمس .

آه ، ليت هذا الفتى المرح الطروب ينطلق على سجيته فلا

يدع الأوهام الكاذبة تكبّل روحه الوثابة !

وضاق عادل بما يجد ، فانطلق إلى أبيه في القرية يطلب لروحه وترفق الأب الشيخ بابنه الشاب وهو يحدثه : « يا بني ، وما ذا عسى أن أفعل والفتاة قد سميت على فتى آخر ؟ أفترانى أستطيع أن أطلب إلى فكرى بك أن يطرد خطيب ابنته في غير ذنب لتستقر أنت مكانه ؟ إنني — وقد عركتني الحياة — لا أومن بالحب ، وهو خرافة قلبية خلقها الشباب ليغرر بها ثورات الطيش وبدوات الزلق ، والحياة الزوجية — في رأى العاقل — دار وزوجة وأولاد . وغداً تظم حاجات الدار على ثورات القلب ، وتمسح تكاليف الحياة على نوازع النفس ، وتبدو الحياة أمامك طفلاً يدرج في فناء الدار ، ثم صبياً يتقلب في المدرسة ، فإذا هو شاب تنمحى حاجاتك أنت لتفسح الطريق لما يطلب هو ، فتبذل له المال والنفس والروح جميعاً ... ولكن ، ألا تعلم شيئاً عن الفتى الذي تزعمه غريماً لك ؟ » قال عادل : « أنا لا أعلم من أمره شيئاً ، ولم أجلس إليه إلا مرة واحدة في مقهى على النيل من مقاهي الجيزة . لقد جاء ليحدثني حديثه ، ويطلب إلىّ أن أنسحب من هذا الميدان كي لا أخلق الشكلة التي يعضل حلها . إنه فتى وسيم الطلعة ، رقيق الشباب ، عليه سيما القوة والجد ، وعلامة النعمة والثراء ، وهو هادئ الطبع ، لين الحديث في غير ضعف ... هو جلال بن عزت بك » !

وبدت الدهشة على وجه الأب حين سمع هذا الاسم ، ونظر إلى ابنه نظرة صارمة ، ثم راح يقول : « الأمير الاى عزت بك ! إنه رفيق الصبا ، وترب المدرسة واللعب ، وصديق الشباب ، وإنه مني بالمكان الذي أحرص فيه على رضاء لأيادٍ كثيرة له عندي . هذا أمر لم تكن تعرفه من قبل . وهكذا ترى أني لا أستطيع أن أزجه في أمر اختاره لابنه وسبقني إليه . ولا ريب في أن رجولتك وعقلك وحق عليك ستدفعك حتماً إلى أن تبقى عليّ وتنزل عند رأيي ، فدع عنك هذا الأمر ، دعه وأنا أختار لك من تشاء لتكون زوجاً لك ، وأبذل لك الجهد والمال لترضى ! »

وخرج الفتى من لدن أبيه يتشرف في خيبته ، وإن قلبه ورجولته ليتجاذبانه ، فما يدرى ما ذا يفعل ، وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً . الآن — وقد سدت الأبواب جميعاً في وجهه — لم يبق أمامه إلا أن يتوارى عن عيني الفتاة إلى الأبد . ولكن رجولته أبت عليه أن ينسل خفية كما يفر الجبان الرعديد من الميدان تحت ستارين من الظلام والسكون .

لقد عقد العزم على أن ينسحب مثلما يرتد الجندي الماتي الجبار حين يرتد في وضح النهار ووجهه دائماً قبالة العدو ، لا يطأطئ رأسه ولا تذل هامته ، فذهب إلى الفتاة يعلن أمامها رأيه في قوة وصراحة .

وجلسا معاً في ناحية من حديقة الدار . لقد جاء يعلن لها رأيه ورأى أبيه . ولكنه تخاذل أمام جمالها الآسر وهو إلى جواره يشع حياة ونوراً ، وتداعى أمام حبها المتأجج وهو يتألق في روحه بهجة وروعة ، فأمسك عن الحديث . أفكان يطمع في أن يمد في عمر سعادته قبل أن يفترقا إلى الأبد ، أم كان يشعر بأن في كلماته صفعات عنيفة فهو يؤجل حيناً بعد حين رجة بقلبين ؟ ولكن صوت أبيه الشيخ رن في أذنيه ينادي : «ولا ريب في أن رجولتك وعقلك وحق عليك ستدفعك حتماً إلى أن تبقى عليّ وتنزل عند رأيي » . فهمّ متدفعاً يعلن رأيه ، وانطلقت كلماته هينة رقيقة ولكنها وقعت على قلب الفتاة الساكنة في مثل قوة العاصفة العاتية فأجهشت البكاء ، وانطلق صوب الباب يريد أن يهرب من ضعفه

لقد انطلق عادل ليهرب من ضعفه ، ولكنه ما كاد يقترب من الباب حتى ارتطم بشاب يزحمه الطريق : هو جلال . لقد رأى جلال بعينيه .. رأى الفتى والفتاة في ركن تحت شجرة من أشجار الحديقة يستمتعان بالخلوة في منأى عن الرقيب ، فوقف ينظر في ذهول وغيظ وحديثهما لا يكاد يبلغ مسمعيه . وحين انطلق عادل صوب الباب أخذ جلال عليه الطريق ، ولكن عادلا لم يعبأ به وانطلق في طريقه دون أن يلتفت إليه ، يريد أن يهرب من ضعفه

وحز في نفس جلال ما رأى ، فانطلق إلى الفتاة ربّت على كتفها ويقول في غيظ وكمد : « لا تحزني يا فتاتي ، لقد رأيت وسمعت . والآن أنتحى أنا لتجدي السعادة والرفاهية إلى جانب الحبيب» . ثم اندفع إلى أمها في ثورة تفور وتثل يقذف في وجهها بخاتم الخطوبة .

لقد خسرت الفتاة الحبيب والزوج في وقت معاً ، وجلست في زاوية ، وإن شبح ابنة عمها ليضطرب في ناظريها كلما ذكرت الخطبة والزواج ، ابنة عمها التي أشرفت على الأربعين ولما تجد الزوج.

فاضل محمود حبيب